

البصرةُ في رحلة الفرنسيِّ (تيفينو) (١٦٦٥)

Basra in French Thevenot's Trip (1665)

أ.د. حسين عليّ عبّيد المصطفى

جامعة البصرة/ كُليّة التربية للعلوم الإنسانيّة/ قسم التاريخ

Dr. Hussain A. Ubaid Al-Mustafa, Professor,

Department of History, College of Education of Human
Sciences, University of Basra.

ملخصُ البحث

تُعدُّ رحلة (جان دي تيفينو) من الرّحلات المهمّة للمهتمّين بتاريخ البصرة في منتصف القرن السّابع عشر؛ كونها أوردت معلومات لم تُوردها كتب الرّحلات المعاصرة له. وقد استمرّت مدّة رحلته إلى البصرة ثمانية وعشرين يوماً من دخوله إلى شطّ العرب عبر الخليج العربيّ.

اتّسمت الرّحلة بالتحدّث عن البصرة في عدّة مجالات؛ ففي المجال الجغرافيّ، قام بوصف شطّ العرب وما فيه من جُزر وأهمّيّته الاقتصاديّة، وحدّد مسافات وأسماء لتلك الجزر والمناطق الواقعة على ضفّتيه في ذلك الزمان. وأكّد أنّ موقع البصرة يُمكن أن يجعلها أجمل وأغنى مدن العالم. ومن النّاحية الزراعيّة، يُمكن أن تصبح مدينة مهمّة لتصدير التمور لكلّ العالم.

وعدّ البصرة مركزاً تجاريّاً مهمّاً؛ كون شطّ العرب قادراً على استقبال السّفن المتنوّعة الأحجام من كلّ الدّول؛ لتقوم بتوزيع تلك السّلع إلى الدّول المحيطة بها، ونوّه بالتنافس الأوربيّ في الخليج العربيّ، وكذلك في البصرة، وبيّن أنّ هناك صناعة لبعض السّفن فيها. وفي الجانب السّياسيّ صادف مجيء (تيفينو) إلى البصرة مرحلة صاخبة فيها، جاءت نتيجة إرادة الدولة العثمانيّة إنهاء حكم الإمارة الأفراسيابيّة في عهد والي البصرة (حسين باشا)، وإرسال الجيوش

لتحقيق هذا المطلب، وكانت معلوماته عن هذا الأمر مهمّة في بعض الجوانب، إلاّ أنّه وقع في بعض الأخطاء التي كان قد أخذها من مصادر غير موثوقة. وكانت معلوماته عن واردات الوالي مهمّة، ولم يتطرق إليها باقي الرّحالة. وكان كلامه عن الجانب الدّينيّ يشوبه التعصّب وعدم الموضوعيّة، وعلى الأخصّ عن طائفة الصّابئة، التي وصفها بعبارات متحاملة وقاسية. ومنها وصفهم بالكفرة، وأتهمّ أغبياء جدّاً، وأنّ طقوسهم فيها أسرار غريبة. وكذلك تكلم عن طريق الحجّ البصريّ للحجاج المسلمين، وأعطانا وصفاً لمنازله حتّى الوصول إلى الكعبة المشرفة، إلاّ أنّه وقع بأخطاء في تشخيص هذا الطريق، وأسماء تلك المنازل، وطقوس الحجّ.

الكلمات المفتاحيّة: (الرّحالة، البصرة، تيفينو).

ABSTRACT

For researchers interested in the history of Basra, Thevenot's trip to Basra is looked at as one of important trips in mid Nineteenth Century. One main reason is that this trip provided unique information not found in the writings of contemporary travelers. His trip to Basra continued for 28 days from entering Shat Al- Arab throug Arabic Gulf.

Thevenot's trip covered various details related to Basra. In the geographic aspect, it described the Shat Al-Arab, its islands, its economic importance, names and areas of these islands, and the areas located on its two banks. He stressed that the location of Basra can possibly make it one of the beautiful and richest cities in the world. On the agricultural aspect, Basra can be an important city for exporting dates worldwide.

Besides, Basra has been regarded as an important commercial center as Shat Al-Arab is capable of receiving

ships of various sizes and nationalities. He also hinted at European competition in the Arab Gulf and Basra showing that there is a local production of certain types of small ships. Politically, Thevenot's trip has coincided with a boisterous stage as a result of the Ottoman's will to terminate the rule of the Afrasiab Emirate by sending troops during the rule of the Wali of Basra Hussain Pasha. The information on this particular event has been important in certain aspects. Nevertheless, he committed some mistakes due to some of the unreliable sources he has used. Specifically, his information on the revenues of the Wali has been especially important, as other foreign travelers did not cover it.

On the religious level, he appeared to be fanatical and not objective, especially with regard to the Sabeans sect that he described in a biased and severe manner dabbling them as infidels and very stupid who have practiced rituals with bizarre secrets. He also described Basra Hajj Road with details covering the rest places until Muslim pilgrims arrived at Mecca. Once again he committed some mistakes in his description of this road and the rites of the Hajj.

Key Words: Travelers, Basrah, Tevenot

مقدمة

تُعدّ الرّحلات الأجنبيّة إلى العراق مصدراً معرفياً، ومادّة تاريخيّة لطبيعة المجتمع في الأطر: الجغرافيّة، والاقتصاديّة، والسّياسيّة، والدّينيّة، والأُمور الأخرى في زمن تلك الرّحلات قد تضيف معلومات لا نجدُها في المصادر الأخرى، ولا يعني ذلك أنّ صاحب الرّحلة عندما كتبها لم يقع في بعض الأخطاء في تلك الجوانب. وهنا يتّضح دور الباحث في تصحيح ما وقع فيه ذلك الرّحّال. تتّصف رحلة (تيفينو) بإعطاء معلومات مفيدة عن البصرة، تختلف عن باقي الرّحّال الذين كتبوا عنها في منتصف القرن السّابع عشر من ناحية الوصف والمقترحات لهذه المدينة.

هناك عدّة تساؤلات يطرحها الباحث عن الرّحلة، منها: هل نجح (تيفينو) في وصف البيئّة البصريّة الجغرافيّة بشكل صحيح؟ وهل معلوماته السّياسيّة مستقاة من مصادر موثوقة؟ وهل وصفه للنشاط التجاريّ في المدينة كان يطابق الحال آنذاك؟ وهل كان حياديّاً في كلامه عن الطوائف الدّينيّة أم كان بعيداً عن الموضوعيّة؟

تمّ تقسيم البحث إلى أربعة محاور، المحور الأوّل هو المحور الجغرافيّ، وكيفيّة وصفه الطّبيعة الجغرافيّة، من حين دخوله إلى شطّ العرب من الخليج العربيّ، وهو راكب سفينة، وتحديد مسافات وأبعاد تلك الأماكن، ووصف ما فيها من

زراعة ورعي، وطبيعة المناخ، وتأثيره على السُّكَّان، وعلى الأخصَّ في فصل الصيف.

والمحور الثاني هو المحور الاقتصادي، الذي وصف فيه النشاط التجاري في شطَّ العرب، وهل هو بالمستوى المطلوب؟ والثالث هو المحور السياسي، الذي بيَّن فيه أوضاع البصرة السياسيَّة الصَّاحبة في عهد الوالي (حسين باشا أفراسياب)، وصراعه مع الدولة العثمانيَّة، فضلاً عن مناوئيه في داخل مركز المدينة.

وفي المحور الأخير المحور الديني، فقد ركَّز فيه على طائفة الصَّابئة في البصرة، ووصف ديانتهم، والفرق بينهم وبين المسيحيين، وتبيان عقائدهم التي سمَّاهم بالأسرار.

سيرته الذاتية

ولد الرحَّالة (جان دي تيفينو) في شهر حزيران سنة (١٦٣٣). تخرَّج في كليَّة (نافار) ولم يتجاوز الثامنة من عمره. ولم نحصل على معلومات عن حياته المبكِّرة التي تكاد تكون غامضة. ويمكن تقسيم رحلاته على ثلاثة أقسام: الأوَّل نحو أوروبا في السنوات (١٦٥٢-١٦٥٥)، والثاني إلى الشرق على مدَّتين، ما بين (١٦٥٥-١٦٦٣)، و(١٦٦٣-١٦٦٧). والذي يهْمُنَّا في هذا البحث رحلته الثالثة، التي بدأت بالإبحار من فرنسا إلى الإسكندرونة، ثمَّ سار برّاً إلى صيدا ودمشق وحلب، وبعدها سار إلى الموصل وبغداد، ومنها توجَّه إلى مندلي، ثمَّ دخل الأراضي الفارسيَّة، فزار كرمشاه وهمدان وأصفهان، وهناك

التقى بالرحالة الفرنسي (تافرنيه)، وواصل معه السفر إلى شيراز وبندر عباس وهرمز، إلا أنه اضطرَّ لأن يرجع وحده إلى شيراز؛ بسبب مضايقة الهولنديين. واستمرَّ بالتنقل في المدن الفارسيَّة؛ إذ توجَّه إلى ميناء بندريق سنة (١٦٦٥)، وتابع مسيره منها إلى البصرة عبر شطَّ العرب.

توفِّي (جان دي تيفينو) في مدينة ميانا الأرمينيَّة في الثامن والعشرين من تشرين الثاني سنة (١٦٦٧) بعد تعرُّضه لإطلاق نار هناك^(١).

اعتمد الباحث الرحلة المترجمة من اللُّغة الإنجليزيَّة في سنة (١٦٨٧)، من قبل الدكتور أنيس عبد الخالق محمود، وعلى عدَّة مصادر تعلَّق بالمُدَّة التي قضاها الرحَّالة في البصرة لتوضيح بعض المعلومات أو تصحيحها، حتَّى تكتمل الرُّؤية التاريخيَّة الصَّحيحة لهذه الرحلة.

تمَّ تقسيم البحث على محاور أربعة؛ لكي تكون المعلومات التي أوردها الرحَّالة (تيفينو) في صفحات الرحلة مرتَّبة حسب هذه المحاور، وليس كما جاءت في الرحلة بشكل غير منظم.

أولاً: المحور الجغرافي

وصل (تيفينو) إلى بندريق في (٧ تشرين الأوَّل ١٦٦٥)، ومنها ركب سفينة أخرى نحو البصرة في اليوم التالي. وعند ركوبه السفينة، وجدها فارغة، وتبيَّن أنَّها كانت مخصَّصة لنقل التمور من البصرة فقط، وعند وصفه المناطق على ضفَّتي نهر شطَّ العرب، أكَّد أنَّ الخرائط التي حصل عليها مليئة بالأخطاء، وأنَّ معظمها قد رُسم استناداً إلى روايات أشخاص لا يعرفون اللُّغة، ويقصد لغة أهل المنطقة؛

لذا تفاهموا معهم بالإشارات، أو ببعض الكلمات التي سمعوها ولم يدقّقوها^(٢). في يوم (١٢ تشرين الأول)، وصلت السفينة إلى نهر كارون، وذكر أنّ النهر ينبع من الجبال التي تمتدّ إلى الشمال من مدينة شوشتر مركز مدينة خوزستان، التي كانت تسمّى مدينة سوسة سابقاً. وأعطى لنا معلومة تاريخيّة تفيد بأنّ النهر كان القدماء يسمّونه نهر (خواسيس)، ووصف المناطق المحيطة به، ومنها جزيرة الدورق التي يسمّيها (دورقستان)، وجزيرة قبان التي يسمّيها (قيان)، وموقعها في محيطة، ويسمّيها (محلة)، وعبان تشكّل حدود إمارة البصرة، ويسمّيها (مملكة)، وهذه الأرض من كلا الجانبين خاضعة لأمر البصرة، ويسمّيها (والي)^(٣).

وصف (تيفينو) الطريق المائي إلى البصرة بالطريق الاعتياديّ من البحر - ويقصد به الخليج العربيّ - إلى مصبّ شطّ العرب. وذكر أنّ الطريق النهريّ خلف جزيرة محيطة لا يمكن للسفن الكبيرة المرور فيه؛ لأنّه ليس عميقاً بما فيه الكفاية، وهذا ما ذكره له ربّان السفينة. ويبيّن أنّ مياه الشطّ عند الجزر قليلة الملوحة، وتكون عذبة عند المدّ، وعند الجزر يضطرّ رجال السفينة إلى النزول على الشاطئ، ويقومون بسحب السفينة بوساطة الحبال المربوطة فيها، وعند نزول الرجال إلى الشاطئ وعودتهم إليهم، ذكروا لهم أنّ الأوضاع في البصرة مضطربة؛ ولذا يجب عليهم الانتظار في هذا المكان. وعرفنا أنّ كلامهم غير صحيح، وأنّهم استدرجوننا لتحميل التمور الموجودة بكثرة في هذا المكان؛ لذا استطعنا الحصول على سفينة صغيرة تنقلنا مقابل إعطائهم ستّة عباسيّات^(٤).

استمرّت السفينة بالاتّجاه شمالاً في نهر شطّ العرب، حتّى وصلت إلى قرية كبيرة على الجهة الغربيّة من النهر، تسمّى كوت معان، ويحدّد مكانها مقابل بلدة

القبان. وبعد مغادرتها لاحظ (تيفينو) أنَّ النهر يتَّسع بشكلٍ كبيرٍ، وحدَّد عرضه بعرض نهر السَّين^(٥)، وأنَّه عميق جدًّا، وتنتشر فيه الكثير من الجزر. ومع استمرار السَّفينة توقَّفت أمام قلعة كبيرة تسمَّى (كوت شمال)^(٦)، ومقابل هذه القلعة إلى الشَّمال قليلاً في الجهة الشَّرقيَّة من النهر شاهد قلعة مرَّبعة الشَّكل لها أربعة أبراج، والمقصود بها قلعة كردلان. وبعدها شاهد قلعة مرَّبعة تسمَّى (كوت منيثل) تُحيطها ثمانية أبراج، برج في كلِّ زاوية، وبرج في كلِّ واجهة، وبالقرب منها جدول صغير، وقربه بيتٌ من القصب (صريفة) يعيش فيها بعض رجالٍ من الكمرک، ويبدو أنَّهم أدلاء؛ إذ أمر واربان السَّفينة بالذهاب إلى كمرک البصرة^(٧). استمرَّت السَّفينة في مسيرها، وحدَّد ذلك بقوله: «غادرنا نهر الكارون، ودخلنا قناة تُدعى الحفار»، وبدء بالحديث عن تلك المنطقة، والحديث عن نهر الحفار، في الجانب الشَّرقيِّ من شطِّ العرب، والقلعة الموجودة على النهر، وبعدها وصلت السَّفينة إلى جزيرة يُسمِّيها (جادر)، ولعلَّها جزيرة (أمِّ الرِّصاص) الحاليَّة. ويبدو أنَّ السَّفينة كانت تسير قرب الضَّفَّة الشَّرقيَّة من شطِّ العرب، وخلف تلك الجزر، وبعدها ذكر معلومة - لا صلة لها بالواقع -، وهي أنَّه بعد اجتياز الجزيرة شاهد قناة تُؤدِّي إلى مينائي القطيف والبحرين، وأنَّ القناة عريضة وعميقة، وتوجد في بعض أماكنها صخور كبيرة^(٨)، ووصف شطِّ العرب في هذا المكان بأنَّ عُرضه يبلغ مرَّتين ونصف من نهر السَّين، وأنَّه عميق جدًّا. وأثناء سير السَّفينة شاهد جزيرة البوارين، التي يسمِّيها (البورين)، وكذلك جزيرة (البو شاصي)، وعلى الجهة اليُسرى (جزيرة الفياضي)، وجميع هذه كبيرة وملِيئة بالنَّخيل.

وفي مساء يوم الجمعة (١٦ تشرين الأوّل)، توقّفت السّفينة بالقرب من الشاطئ أمام قلعة الوالي، والصّحيح أنّها قصر الوالي في المناوي، ويصف (تيفينو) القصر بأنّه جميل جدّاً، وفيه الكثير من الأروقة، التي تحتوي على شبابيك لدخول الهواء العذب خلال فصل الصّيف، ويستدرك على كلامه الأوّل بأنّه قلعة، ويذكر أنّ هذه القلعة بُنيت لغرض الراحة والاستجمام، وليس فيها تحصينات كثيرة، وكلامه الأخير صحيح^(٩).

وفي اليوم التالي دخلت السّفينة نهر العشار، الذي يقول عنه: إنّه قناة على الجهة اليسرى من شطّ العرب، والأدقّ على الجهة الغربيّة منه. وتوجد في بدايته قلعة فسيحة مهدّمة من جهة النّهر، الذي يسمّيه بالبحر، ويصف نهر العشار عند المدّ بأنّه ضعف عرض نهر السّين بمرة ونصف، ولكن عند الجزر لا يعدو أن يكون أكثر من جدولٍ بائسٍ مليءٍ بالوَحْل^(١٠).

عند وصول (تيفينو) إلى مركز المدينة، حدّد مكانها، وذكّر أنّها تقع على ضفّتي نهر العشار الذي تنتشر فيها البساتين في كلا الجانبين، والبيوت إلى الخلف (نحو الغرب)، ووصلت سفينتنا إلى الكمرك الذي يقع جنوب المدينة، وربّما يقصد بذلك الضّفّة الجنوبيّة من النّهر في منطقة المنكسار^(١١). وبعد فحص أمتعتهم، ذهبوا إلى دير الآباء الكراملة الحفاة الأجلّاء، الذي لا يبعد كثيراً. ولم يجدوا سوى الأب (سيفيرين)، وأنّه رجل دينٍ إيطالي^(١٢).

وحدّد (تيفينو) موقع مركز المدينة، الذي سمّاه عاصمة المملكة، والصّحيح أنّه مركز الإمارة الأفراسيائيّة، في أقصى أطراف شبه الجزيرة العربيّة، التي تقع إلى الغرب منها، بالقرب من بلاد العرب السّعيدة، التي تقع إلى الجنوب بمسافة

يومين من المكان الذي يلتقي فيه نَهْرَا دجلة والفرات، ليكونا شطَّ العرب. وهنا وقع في خطأ جغرافيٍّ، فما علاقة البصرة ببلاد العرب السَّعيدة، المقصود بها اليمن؟! وقام بتحديد موقعها على البوصلة، فذكر أنَّ البصرة تبعد ثمانية عشر فرسخاً^(١٣) عن البحر، ولعلَّه يقصد الخليج العربيِّ، وتنحرف البوصلة نحو (١٣) درجة ونصف من الشَّمال نحو الغرب، ومن هناك إلى الهند تنحني البوصلة نحو (١١) درجة وثلاث، والبعض يقول: النصف من الشَّمال نحو الغرب.

وتبعد البصرة عن بغداد يومين برّاً، ولمَّ يحدِّد واسطة السَّفر إليها، وربَّما يقصد السَّفر على الدوابِّ، أمَّا السَّفر بوساطة السُّفن من بغداد إليها عن طريق نهر دجلة، فهي ما بين خمسة عشر إلى ستة عشر يوماً، وفي الأغلب ثمانية عشر يوماً، بينما يكون السَّفر بالسُّفن إلى بغداد منها يستغرق ما بين خمسين إلى ستين أو حتى ثمانين يوماً؛ لأنَّ الرِّجال يقومون بسحب السَّفينَة بالحبال فقط^(١٤).

وعند وصفه لمركز البصرة، ذكر أنَّها مدينة كبيرة، وأسوارها مبنية من الطين، ويبلغ محيطها نحو ستِّ ساعات سيراً على الأقدام، وتوجد فيها مساحات كثيرة خالية من البيوت أو البساتين^(١٥)، وتوجد في الأسوار بوابتان، الأولى بؤابة الشَّرق، التي تُطلُّ على شرق المدينة، ولمَّ يحدِّد مكانها بالضبط، والثانية بؤابة الغرب، وهي بؤابة بغداد على طريق بغداد.

ولتيفينو رأي يلفت النَّظر عن موقع المدينة؛ إذ عدَّه ملائماً جداً، ويمكن أن تكون البصرة أغنى مدن العالم وأجملها^(١٦)، ويقترح عدَّة أمور لتطويرها، منها: أنَّ الحياة فيها تكون هائلة إذا ما تمَّ الاعتناء ببنائها قليلاً، وزُرعت فيها الحدائق على امتداد ضفَّة نهر العشار- وربَّما تكون الضفَّة الشَّالية أو اليمنى - والنَّهر

يخترق المدينة كلها، ولو سُمّدت الأراضي المحيطة به، وزُرعت بالنخيل، فستنتج أي شيء؛ بسبب الحرّ الشديد والتربة الرّمادية-، وهذه مبالغة؛ لأنّ الحرّ الشديد كان محصوراً في عدّة أسابيع من الصّيف - وأنّ التربة خصبة جداً؛ بسبب ظاهرة المدّ والجزر التي تحدث مرّتين في اليوم، ويبعد البحر أربعة أيّام ونصف اليوم عن البصرة^(١٧).

يصف (تيفينو) مناخ البصرة في فصل الصّيف، فيذكر أنّه خلال ثلاثة أشهر من السنّة، وهي: تمّوز، آب، أيلول، يشتدّ الحرّ فيها بشكل لا يُطاق، ولاسيّما عندما تهبّ الرياح الجنوبيّة الشرقيّة. ويذكر أنّه مات في البصرة أربعة آلاف شخص خلال ثلاثة أسابيع؛ بسبب رياح السموم في شهر تمّوز من سنة (١٦٦٥)^(١٨)، وهذه مبالغة كبيرة، وانتقد نوم النّاس ليلاً على سطوح المنزل؛ لأنّ ذلك - حسب رأيه - يؤدّي إلى المرض بسبب الهواء الحارّ المؤذي بسبب الحرّ الشديد، فيضطرّ السكّان إلى شرب الماء في كلّ لحظة، والماء ضارٌّ وكرهه الطّعم؛ لأنّه من مياه شطّ العرب الداخلة إلى نهر العُشّار، ويصف الأخير بأنّ مياهه موحلة جداً، وملئثة بالأتربة، وليس بمقدورهم الحصول على مياه سوى تلك المياه الرديئة، ولا توجد سوى بركة مثيرة للقرف، لم يحدّد مكانها. ويقترح لتحسين إساءة المياه، أن تنظّف ضفاف النّهر من الأتربة في أماكن مختلفة، وتُجمع المياه في برك صغيرة، ليتمكّن السقّاؤون من الحصول على المياه في أيّ وقت؛ لأنّ القذرين - على حدّ قوله - يقضون حاجاتهم، ويغسلون ملابسهم في مياه النّهر، فتكون المياه قذرة وضارة جداً^(١٩). وعن تأثير المناخ الحارّ على السكّان ينتشر مرض شائع جداً في أشهر الصّيف، في: تمّوز، آب، أيلول، وهو نوع من أنواع الدّمامل أو الأورام

الحيثية - على حدِّ وصف تيفينو-، وتظهر بين الأفخاذ والرَّقبة وأجزاء أُخرى مِنَ الجِسم، وما إن تشفى في جزءٍ من الجسم حتَّى تظهر في أجزاءٍ أُخرى، ويُعتقد أنَّ هذا المرض هو نوعٌ من أنواع الطاعون، ويستدرِك بأنَّه لم يمُت أيُّ شخصٍ بسببه، إلَّا أنَّه يؤكِّد أنَّ الإصابة بهذا المرض سببها الإفراط في تناول التمور، ولاسيَّما الفقراء. وقبل وصوله إلى مركز المدينة بشهرٍ أشار إلى وفاة قبطان يونانيٍّ في كنيسة الآباء الكراملة بالقرح والدَّمال (٢٠). ويبيِّن أنَّ انتهاء هذا الحرِّ الشَّدِيد في البصرة يكون عند نهاية شهر أيلول؛ لذا يجب على الإنسان أن يتدَثَّر جيِّداً؛ لأنَّ الهواء يكون - حينذاك - خطراً، وترى أفواه الكثيرين وقد أَعوجَّت، ويعزو السَّبب إلى النوم في الهواء الطلق (٢١)، وابتداء من نهاية تشرين الأوَّل حتَّى كانون الثاني يكون الجوُّ بارداً في اللَّيالي والأصباح، ولكنَّه لا يستمرُّ إلى ما بعد شروق الشَّمس بعد ساعتين أو ثلاث ساعات (٢٢).

ثانياً: المحور الاقتصادي

أعطى (تيفينو) الأحوال الاقتصادية في البصرة حيِّزاً كبيراً من اهتمامه. وعند وصوله إلى منطقة القبَّان التي كانت تابعة لإمارة أفراسياب، ووصفها بالخصبة والمستوية والواطئة والخضراء في جميع جهاتها، وأنَّ الأبقار تسرح في المراعي، التي تُشبه مراعي هولندا (٢٣)، ويذكر لنا معلومة تبيِّن أنَّ القناة المتفرَّعة من نهر الكارون إلى شطِّ العرب قد تمَّ حفرها من أهالي المنطقة، وأنَّ الأرض على كِلا جانبي القناة صالحة للزَّراعة، وهي مزروعة بالنَّخيل الذي ينتشر فيها بكثرة (٢٤). وعند وصوله إلى جزيرة (أمِّ الرِّصاص)، ذكر أنَّها كثيرة النَّخيل، بالرَّغم من

أن تربتها غير صالحة للزراعة، ولم يُبين السبب في ذلك. وذكر أن ماء البصرة عند المدّ ليس مالحاً، وأن المنطقة المقابلة للمدينة - وربّما يقصد الجهة الشرقية لنهر شطّ العرب - لا ينمو فيه شيء سوى النخيل، والغريب أنه يذكر أن النخيل ينمو بكثرة في الأراضي الملحية^(٢٥)، ولكي يدلّ على قوله ذكر أن البعض ذكّر له أن التربة إذا حُفرت بعمق قامة أو قامتين، فسيخرج الماء المالح، واستدرك بأن هذا الأمر لا ينطبق على الأماكن كلها. ويبيّن أن النخيل في البصرة وضواحيها أكثر من أيّ بلد آخر في العالم^(٢٦). وعند كلامه عن الخضروات والفاكهة، أكد أن البصرة تنتج منذ شهر تشرين الثاني، ويستمرّ حتى بداية شهر تمّوز أنواعاً من الأعشاب، مثل: الهندباء، والسبيناخ، وغيرها من الخضروات. وهناك بساتين كثيرة ينمو فيها المشمش الذي يصفه باللذيد جداً، ويكثر العنب في أشهر حزيران وتمّوز وآب^(٢٧)، وينمو البطيخ والرقي والليمون في شهر تشرين الأوّل^(٢٨)، ويذكر أن الفاكهة التي سمّاها لا يمكن حفظها بسبب الرياح الجنوبية التي تهبّ في ذلك الموسم الحارّ الرطب^(٢٩).

وأعطانا (تيفينو) وصفاً لصناعة السفن في الجهة الشرقية من شطّ العرب، جنوب مصبّ نهر الكارون، التي كانت تابعة لإمارة أفراسياب، فيبيّن أن «هذه السفن ذات قعر مسطح، ويبلغ ارتفاعها نحو قامة واحدة، وعرضها قامة ونصف، وطولها نحو خمس قامات، ومقدّمها واطئة جداً، ومؤخّرتها مرتفعة، وقمّتها عالية أيضاً، وطرفها مدبّبان مثل طرفي زوارق (الجنودول) في البندقية، وهذه السفن ليست مجلفطة^(٣٠)، وإنّا مطليّة بالقار من الخارج فقط، بالطريقة التالية: عندما يريدون تزفيت (الدانق) - وهو اسم هذا النوع من القوارب باللّغة

العربيّة- بالقار يقومون بعمل فرن داخل الأرض على بعد عشر خطوات أو اثنتي عشر خطوة من الدّانق، ويكون الجزء العلويّ منه أشبه بمرجل يصبون فيه القار، والنّار من تحته. وعندما يُوشك القار على الذوبان، وقبل أن يتحوّل إلى سائل، يتقدّم رجلٌ، وييده مضرب خشبيّ، ويغمسه فيه، ويُلقِي رجلٌ آخر بعض القار عليه، ثمّ يوضع الماء على القار الذي يحمل إلى الدّانق، ثمّ يمزج القار بقطعة خشبيّة دون أن يعلق بها. ومنّ يعمل على الدّانق يأخذ القار بيده وينشره مثل الجصّ على الدّانق، ثمّ ينشره على المركب بواسطة أسطوانة غير مدوّرة تماماً. وهذه الطريقة يتمّ طلاء الدّانق كلّ من الخارج»^(٣١).

ويُثني (تيفينو) على هذه السفن بقوله: «وهذه السفن متينة جدّاً؛ إذ يبلغ سُمك جوانبها نحو قدم، وجميع ألواحها مسمّرة بمسامير ضخمة كالمسامير في البوّابات بفرنسا، ولها صار ضخّم. والحقيقة أنّ هذه السفن ثقيلة جدّاً، ولا سيّما وسط الماء، حينما لا يكون استخدام الشّراع ممكناً، إنّ لم تكن هناك رياح تدفّعها من الخلف. ومع ذلكّ فهُم يحمّلونها حمولات ثقيلة جدّاً، مع أنّ غاطسها في الماء لا يزيد على نصف قدم»^(٣٢).

لاحظ (تيفينو) عدم وجود صناعة للخمر في البصرة، بالرّغم من كثرة العنب في مزارعها، وأكّد أنّ أهالي البصرة لا يصنعون الخمر أو البراندي أبداً، وأنّ كليهما ممنوع، والمخالف يُعاقب بشدّة، إلّا أنّ الوالي يسمح بين وقتٍ وآخر للآباء الكراملة^(٣٣) بصنع القليل منه، والذي يُخصّ المسيحيّين في الدّير، مقابل مبالغ مجزية للوالي للحصول على الترخيص لذلك، وهذا هو السّبب بعدم قيامهم بصنع كمّيّات كبيرة منه؛ ولذا فإنّهم يجلبونه من شيراز للاحتفال بعيد

القدّاس، ولترفيه الفرنجة المقيمين معهم، عندما يقام القدّاس^(٣٤).
 أكد (تيفينو) أهميّة موقع المدينة، وأنها يمكن أن تكون أغنى مدينة في العالم؛
 بسبب التجارة التي يمكن أن تقوم فيها مع كل أرجاء العالم؛ لأنّ ميناءها -
 الذي لم يذكر اسمه وهو ميناء السّراجي - جيّد وآمن جدّاً، ويبعد اثني عشر
 فرسخاً عن البحر، بدءاً من مياه شطّ العرب العذبة، وهو عريض وعميق جدّاً،
 فيمكن للسفن الضخمة الدخول إليه من دون خطر، وأنّ السّلع الأوربيّة تصل
 إليه عبر البحر المتوسّط، وتُنقل براً إلى مدينة حلب، ومنه تنقل إلى البيرة^(٣٥)
 -التي لا تبعد سوى أربعة أيّام عن حلب- ومنها تنقل عبر الفرات، وتصل
 إلى الرّضوانيّة^(٣٦) التي لا تبعد عن بغداد إلّا يوم واحد، لتتنقل منها عبر دجلة،
 لتصل إلى البصرة خلال خمسة عشر أو ستّة عشر يوماً. ولكي تصل البضائع
 عبر نهر الفرات بشكلٍ أسرع، ويكون صالحاً لسير السّفن الكبيرة، لا بدّ من بذل
 جهود أكبر من خلال كربي بعض الأماكن التي تُعرقل حركة المرور؛ بسبب
 وجود الصّخور الكبيرة، وهذا هو السّبب في عدم وصول السّفن إلى أبعد من
 الرّضوانيّة؛ إذ توضع البضائع على البرّ، وتُحمل على ظهور الجمال، ليتمّ نقلها إلى
 بغداد، ومنها إلى نهر دجلة، ولكنّ السّفن الصّغيرة تستطيع النزول من البيرة إلى
 البصرة عبر نهر الفرات^(٣٧).

تُنقل إلى ميناء البصرة البضائع القادمة من بلاد فارس، فتصل إلى (جمبرون)^(٣٨)
 وكنج^(٣٩)، ثمّ إلى البصرة. في حين تصل البضائع الهنديّة عبر الخليج بسهولة،
 وينطبق الشيء ذاته على البضائع القادمة من البحر الأحمر، والجزيرة العربيّة؛ إذ
 تُشحن من ميناء القطيف الذي لا يبعد عن البصرة سوى ثمانية أيّام. وبهذا يتمّ

تبادل جميع أنواع البضائع من تلك البلدان مع البصرة، فيحلّ فيها رخاء غير محدود، على حدّ قوله. إلا أنّ الوضع الحالي ليس بهذا الشّكل؛ لأنّ الكثير من السفن كانت ترسو هناك، لا سيّما بعد تدمير ميناء هُرمز^(٤٠)، الذي كانت تتمّ فيه عمليّات التبادل التجاريّ في تلك البحار.

ومنذ ذلك الحين (سقوط هرمز)، أخذت الكثير من السفن تأتي البصرة وهي محمّلة بالبضائع الهندية. وحينما تأتي السفن خلال الموسم (موسم تصدير التمور) - كما يسمّيه أهل المنطقة - في شهر تمّوز (والصّحیح في بداية شهر أيلول) تبقى السفن في الميناء حتّى الخروج من النّهر بانتظار الرّياح المعاكسة، ولا سيّما في الموسم الذي تبدأ فيه حركة الإبحار إلى الهند، التي تستمرّ حتّى بداية شهر أيّار^(٤١). وشاهد (تيفينو) عند وصوله الميناء في شهر تشرين الأوّل خمسة عشر مركباً راسياً فيه^(٤٢)، البعض منها هولندية، والبعض الآخر يسمّيهّا محمّدية (إسلامية)، وهي لا تشحن سوى التمر الذي يحملون منه كمّيّات كبيرة، يجهّزون بها أنحاء الهند كافّة، ويحقّقون منها أرباح طائلة من السيولة النقدية التي يتاجرون بها في الهند. وخلال أشهر الموسم الأربعة (آب، تشرين الأوّل، تشرين الثاني، كانون الأوّل)^(٤٣) تمتلئ البصرة بالأجانب القادمين من الهند عبر البحر، والقادمين من بغداد لشراء السلع الهندية أيضاً؛ ونتيجة لكثرة الوافدين إلى البصرة في تلك المدّة ترتفع أسعار البيوت، ولعلّه يقصد إيجارها، إلى معدّلات أعلى من أسعارها خلال الثمانية أشهر الباقية من السنّة، التي لا يبقى فيها أحد سوى أهل المدينة^(٤٤).

وتحدّث (تيفينو) قبل وصوله إلى البصرة بيومين، عن عمليّة قام بها الهولنديّين تدلّ على دهائهم وخبثهم، وهي قيامهم بحرق كمّيّة كبيرة من القرفة

(الدارسين)؛ لأنَّ التجَّار امتنعوا عن إعطائهم السَّعر الذي طلبوه عنها، وهذا قد أثار غضبهم؛ لذا صرَّحوا علناً بأنَّهم سيقومون بحرقه، ولا يبيعونه بذلك السَّعر، وهذا ما قاموا به فعلاً في وكالتهم التجاريَّة، وقد التهمت النيران كمِّيَّات كبيرة منه، وكانت رائحته يشمُّها النَّاس في كلِّ المناطق المجاورة^(٤٥).

قام الهولنديون-على رأي تيفينو- بتعمد إشاعة الأخبار عن عزم الملك الفارسي (عبَّاس الصَّفوي) ^(٤٦) على محاصرة البصرة، بهدف دفع التجَّار إلى نقل أموالهم على متن السُّفن الهولنديَّة بدل السُّفن المحمديَّة (العثمانيَّة)، وانتشر هذا الخبر سريعاً، وصدَّقه التجَّار بسرعة أيضاً. وكذلك نشر أخباراً سيِّئة عن الفرنسيين لإثارة النَّاس ضدَّهم- في مجال التنافس التجاريِّ معهم-، بأنَّ الفرنسيين قادمون لتأسيس تجارة في الهند، وأنَّ جميع السُّفن الفرنسيَّة هي سفن قرصنة؛ إذ استغلُّوا حادثة قبل ثلاث سنوات عندما جاءت سفينتان للقراصنة إلى (مخا)^(٤٧) لا تحملان سوى النقود إلى سورات^(٤٨) لجلب البضائع، وكان ذلك في شهر آب، وقد نهب الفرنسيون ما في السَّفينتين، ثمَّ فرُّوا. ويتقد (تيفينو) الفرنسيين بأنَّهم لو كان لديهم ذكاء أكثر بقليل في تلك البحار، لحقَّقوا المزيد؛ لأنَّهم قد يتمكَّنون من المجيء إلى الخليج الفارسي (العربي)، ويتظرون سفن البصرة هناك في نهاية شهر تشرين الأوَّل (لعله يقصد تجَّار البصرة والمناطق المحيطة بها)، التي ستكون محمَّلة -حينذاك- بمبالغ كبيرة من الأموال للمتاجرة في الهند، وكان بمقدورهم أن يكونوا سادة الهند بسهولة، ومن ثمَّ أصحاب مبالغ طائلة من الأموال السَّائلة، التي لا ينافسهم أحد فيها، بخاصَّة أنَّ الهنود الذين يستخدمونهم على سفنهم غير قادرين على معارضتهم. ولو حصل ذلك

لكان بمقدورهم القضاء عليهم بسهولة، لكنهم لم يفعلوا ذلك، بل أشاعوا في عموم تلك المناطق ذعراً ورعباً، وأصبحت كلمة فرنسيّ كافية لزرع الخوف في نفوس النَّاس هناك^(٤٩).

استطاع والي البصرة الحصول على عائدات ماليّة يصفها (تيفينو) بالهائلة، وقد أكّد أنّها تبلغ ما لا يقلُّ عن (٨٠٠) ألف قرش^(٥٠) بطريقة غير متعسّفة، فمثلاً: دار الكمرک في البصرة يحصل منها على مبلغ محترم؛ لأنّه لم يؤجّرهما بالالتزام، كما هو شائع في تلك المناطق، وإنّما يكلف مسؤولاً هو الشاهبندر^(٥١) كما يسمّونه، ويدفع له راتباً، ويكون مسؤولاً عن كلّ الأموال المستلمة. إلى جانب ذلك يفرض الوالي على كلّ نخلة نصف شاهية^(٥٢) في السنّة، وهذه العوائد الماليّة تُعهد إلى رجلٍ - عن طريق الالتزام - يدفع له خمسين ألف قرش سنويّاً. فضلاً عن ذلك، يحصل على مبلغ كبير من الفرس الذين يذهبون إلى مكّة سنويّاً؛ لأنّهم يسلكون هذا الطريق جميعاً عبر البصرة، فيبيع لهم الجمال التي هم بأمرّ الحاجة إليها، بالسّعر الذي يفرضه، وإلى جانب ذلك يدفعون له أيضاً (٣٥) جيكيناً^(٥٣) عن الشّخص الواحد؛ وذلك عن حمايتهم بقوّة مكوّنة من ثلاثمائة جنديّ تذهب معهم إلى مكّة المكرّمة، وتنتظرهم هناك، وبعد انتهاء المراسيم تعود بهم إلى البصرة. وكان أولئك الحجاج يدفعون المال عن طيبة خاطر؛ ليأمنوا شرّ اللصوص العرب خلال ذهابهم من البصرة إلى مكّة المكرّمة في خمسة وعشرين يوماً. وحينما يعودون يشتري جاهلهم بسعر منخفض جدّاً، ويبيع لهم الخيول بسعر مرتفع جدّاً، ليعودوا إلى ديارهم. ويأخذ الوالي مثل هذا المبلغ من التجّار الذين يشترون منه الخيول في أثناء الموسم لنقل سلعهم، ولا بدّ لهم من

أن يشتروها بالسعر الذي يُريده؛ لأنَّ بيع الخيول ممنوع لأيِّ شخصٍ مهما كان خلال تلك المدَّة^(٥٤).

والجدير بالذكر، أنَّ والي بغداد العثمانيِّ قام بمحاولة سيئةٍ وغير وديَّةٍ لإمارة أفراسياب؛ وذلك بمراسلة الفرس الراغبين بالتوجُّه إلى مكَّة المكرمة بالمجيء والمرور عن طريق بغداد، ضامنًا لهم حرِّيَّة المرور، مقابل (٢٥) جيكيناً للشخص الواحد؛ لذا توجَّه القسم الأكبر منهم لتوفير (١٥) جيكيناً عن هذا الطريق، ولم يذهب عن طريق البصرة إلاَّ قلةٌ من الأشخاص^(٥٥).

ثالثاً: المحور السياسي

صادف مجيء الرِّحالة (تيفينو) إلى البصرة أوضاعاً سياسيةً صعبة، تمثلت برغبة الدولة العثمانية في إنهاء حكم إمارة أفراسياب في عهد (حسين أفراسياب). وذكر (تيفينو) أثناء وصوله بندريق مجيء سفينتين من البصرة تحملان رسائل من (حسين باشا) إلى حاكم بندريق، يطلب منه فيها إرسال اثنتي عشرة سفينة محمَّلة بالجنود إلى البصرة للدِّفاع عنها ضدَّ الحملة العثمانية التي يقودها سبعة أمراء - على حدِّ قول تيفينو - بأوامر من السُّلطان الأعظم (مصطفى الثاني) (١٦٤٨-١٦٨٧م)، ويعزو سبب الحملة إلى عدم امتثال (حسين باشا) لأوامر الباب العالي^(٥٦).

وعند وصول سفينة (تيفينو) إلى مدينة القبان، نزل بعض ملاحِيها إلى اليابسة، وعند عودتهم أخبروه بأنَّ البصرة تشهد اضطراباً وفوضى، وأنَّ واليها ذهب بكامل جيشه لمقابلة الجيش العثمانيِّ، وأنَّ السُّفن تمَّت مصادرتها لنقل

جنوده، وأتهم سيعودون إلى بندريق. إلا إنَّ (تيفينو) كذَّب هذه الأخبار كلها، وإنَّ الملاحين بالغوا كثيراً حتَّى لا يُوصلونا إلى البصرة^(٥٧).

وبعد أن ركب (تيفينو) سفينة أخرى إلى البصرة، وذكر أنه لم يُشاهد أيِّ مظاهر للاستعداد للحرب سوى قيام والي البصرة بإصدار أمرٍ بالخطر على جميع المراكب المحمَّلة بالبضائع في الميناء بالتوجُّه إلى بغداد، ردّاً على منع والي بغداد أيِّ سفينة بالتوجُّه إلى البصرة. وفي تلك الأثناء، سمع أخباراً انتشرت فيها، وصفها بالشائعات، بأنَّ الملك الفارسيّ (عبّاس الصفويّ) قادم لمحاصرتها، فسأله كثير من التجّار من ذي المنزلة الرفيعة عن أحوال جباية الضرائب في الكمرک، فأخبرهم أن هذه شائعات يجب ألاّ ينزعجوا منها، وأكد لهم عدم وجود أيِّ استعدادات في بلاد فارس لشنّ تلك الحرب، وأن هذا هو الواقع. ولا ندري من أين استقى هذه الأخبار؟ وأخبروه عن وجود عشرين قرصاناً فرنسيّاً في الخليج أوقفوا الرعب والهلع في نفوس التجّار، وأن هذه الأخبار تجعلهم في قلق، ولم يعلّق (تيفينو) على هذا الخبر الأخير^(٥٨).

تحدّث (تيفينو) عن والي البصرة (حسين باشا)، ولم يذكره بالاسم، وأنّه تولّى الحكم بعد أبيه (عليّ باشا)، ولم يذكره بالاسم كذلك، ولم يذكر سنوات حكمهما، وإنّما بيّن أنّ الحكم وراثيّاً عندهم، وأنّ كلّ والٍ يشتري حقّ الوراثة لابنه عن طريق تقديم الهدايا الثمينة للسُّلطان، وحاليّاً هو الرابع في الحكم، والصّحيح أنّه الثالث؛ لأنّ الأوّل هو أفراسياب، والثاني عليّ، والثالث حسين، «ولأربع سنوات خلت كان السُّلطان الأعظم يُرسل له حقّ وراثة الولاية، عن طريق (القبوجيّ)، وهو يدفع سنويّاً ضريبة قدرها نحو ألف قرش للباب العاليّ،

يُنْفِق القسم الأكبر منها على السُلْطانات ورئيس الخصيان، وغيرهم من الرّجال المهمّين في السّراي، والذي يضطرّ إلى المحافظة على علاقات وثيقة معهم؛ لأنّه لا يستطيع ضمان وضعه إلّا عن طريق الهدايا؛ ونظراً للنزعة الاستقلاليّة التي تميّزها حكام أفراسياب في البصرة، والتي عدّها الباب العالي بمثابة خروج عن الطاعة، وخصوصاً في عهد (حسين باشا)، فقد أرسلت الأوامر عدّة مرّات إلى والي بغداد مع ولاية المناطق الأخرى لعزله، وحينما شعر بعدم قدرته على الحرب، اشترى السّلام لنفسه، ولم يوضّح لنا كيف قام بذلك، ويعطينا (تيفينو) معلومة خاطئة عن مجرى الأحداث، بأنّ (حسين باشا) لا يثق بقوّاته؛ لأنّ جنوده كلّهم من الفارّين الأتراك من حلب وبغداد، وأنّهم ينتهزون الفرص للهروب من ساحات المعارك والعودة إلى ديارهم، أو هم من العرب الذين يُفسدهم المال، ولو كان الأمر عكس ذلك، أي: لو كان الجند مخلصين له لاستطاع مقاومة كلّ الجيوش المتحالفة ضده^(٥٩).

وحقيقة الأمر أنّ (حسين باشا) خاض عدّة حروب ضدّ الجيوش العثمانيّة خلال مدّة حكمه البصرة، ولم يقتصر ذلك في الداخل، بل إنّ جيوشه حاربت في خارجها عندما سيطر على القطيف والأحساء، ولم ينته حكمه إلّا في سنة (١٦٦٨)^(٦٠).

كتب (تيفينو) عن العلاقات المتوتّرة بين (حسين باشا) والدولة العثمانيّة، ويبدو أنّه استقاهها من الآباء الكرمليين، أو ممّن التقاهم من النّاس، فذكر أنّه قبل أربع عشرة سنة، أي: في سنة (١٦٥٧)، ذهب اثنان من أعمام (حسين باشا)^(٦١) بعد مقتل أخيها (عليّ باشا) - والصّحيح أنّه لم يُقتل، بل مات ميتة طبيعيّة - إلى

القسطنطينية، وطلبها من السلطان العثماني ولاية البصرة لأحدهما، والأحساء والقطيف للآخر، وقد وافق السلطان على ذلك، وأمر والي بغداد (مرتضى باشا) (١٦٦١-١٦٦٨) -آنذاك- بعزل والي البصرة، ووالي القطيف والأحساء (المعين من قبل حسين باشا)، اللذين كانا مُطيعين للسلطان الأعظم^(٦٢)، وتنصيب هذين الأخوين بدلها. وقد قام والي بغداد بتجهيز حملة عسكرية متوجّهًا بها إلى البصرة مع الأخوين، ويذكر (تيفينو) أن الأهالي استقبلوا الحملة استقبالا مفرحاً - على حدّ قوله-، وأن (حسين باشا) لم يبقَ طويلاً في البصرة، بعد أن شعر أن الناس سئموا طغيانه وتخلّوا عنه، فانتقل إلى مدينة الدورق الفارسية، والصحيح أنّها تابعة لإمارة أفراسياب.

أصبح (مرتضى باشا) سيّد البصرة، دون أن يدخل في حرب مع (حسين باشا)، وكان بمقدوره أن يكون مُلكاً في الوقت المحدّد لو تصرّف بشكل جيّد^(٦٣). وعند وصوله البصرة، قام بتنصيب أحد الأخوين (أحمد باشا) والياً على البصرة، وبعد يومين قام باصطحابها معه إلى خارج المدينة بحجّة التنزه، ثمّ قام بشنقها، وقد أثار ذلك التصرّف غضباً شديداً عند أهالي البصرة، وأرادوا تفسيراً لعمله هذا، هل هو بعلم السلطان أو بتصرّفه الفرديّ؟ وهل كان يفكر بالتودّد للقوّات غير النظامية في البصرة، ويريد تمكين نفسه بحيث لا يتمكّن أحدٌ من إزالته؟ ومما زاد الطين بلة عدم اكتفائه بقتل الرّجلين، بل قام باستدعاء أعيان ووجهاء المدينة، واستولى على ممتلكاتهم، وأمر بشنق خمسة عشر أو عشرين منهم أمام النّاس، ما أثار غضب الجنود الذين انتفضوا كلّهم ضده، فاضطرّ إلى الفرار بسرعة حاملاً معه ما استطاع من الأموال، ومنذ ذلك الحين زار القسطنطينية (استانبول)

مرتين، وبعدها أُعيد إلى ولاية بغداد، ولكن بعد أن استدعي إلى الباب العالي للمرة الثالثة، إلا إنه تراجع بعد وصوله إلى الموصل؛ لئلا يتم إعدامه، وفي طريق الرجوع ولّى هارباً إلى بلاد فارس، وفي الطريق كان حظّه عاثراً؛ إذ تعرّف عليه بعض الأكراد حينما مرّ بكرديستان، وقاموا بقتله وقطع رأسه^(٦٤).

ويعطينا (تيفينو) وصفاً للوالي (مرتضى باشا) بأنه من أصل جورجي، وأنه اعتنق الديانة التركيّة (الإسلاميّة) ليس عن اعتقاد؛ لأنه كان مسيحياً في قرارة نفسه، حتّى إنه لم يكن محتوناً خلاف ما يقوله العثمانيون عنه، وكان شغوفاً بالحكم، وهدفه الوحيد أن يكون سيّد إحدى الولايات العثمانيّة. واتّصف بالكرم تجاه جنوده الذين اشترى محبّتهم وصدّقتهم، التي فقدوها بسبب أعماله العنيفة، وحينما شعر بنهاية حياته السّياسيّة، أراد تسليم بغداد للشّاه الفارسيّ (سليمان ابن الشّاه عبّاس الثاني الصّفويّ)، لكنّ الأخير رفض العرض؛ لأنّ وضعه لا يسمح له بشنّ حرب. وقد كان -أحياناً- مطواعاً لعواطف الجند والنّاس، وكان بمقدوره تحقيق أشياء عظيمة لو كان يتصرّف بقليل من الحكمة^(٦٥).

وبعد أن تمّ القضاء على (مرتضى باشا)، قام الأهالي بمكاتبة (حسين باشا)، وطلبوا منه الرجوع لحكم البصرة، وأنّ (مرتضى باشا) لا علاقة له باستدعاء الوالي الشّرعيّ^(٦٦)، ويقصد به (حسين باشا)، فعاد، واستقبله أهالي البصرة بالتأييد والترحاب. وفي اليوم الذي غادر فيه مدينة الدّورق، وصلت تعليمات من شاه إيران إلى قاداته بحجز والي البصرة، وقيل: إنّ الشّاه كان عازماً على إرسال جيش إلى البصرة، ويُعلن تنصيب نفسه حاكماً عليها، إلا أنّ الأمر وصل متأخراً، وانتهت هذه الخطّة^(٦٧).

أعطى (تيفينو) معلومات عن سلطة (حسين باشا) خارج ولاية البصرة، وكيفية اتساعها إلى القطيف والأحساء التي كانت تحت سيطرة والٍ خاضع لحكم السلطان العثماني^(٦٨)، إلا إن (حسين باشا) قام باحتلال ميناء القطيف، وأراد احتلال الأحساء، وتعاون مع أحد شيوخ المنطقة وبعض المجاميع العربية التي تركت والي الأحساء، وقاموا بدخول المدينة ونهبها. ويبدو أن الشيخ العربي أراد السيطرة على الأحساء لمطامعه الشخصية، وليس من أجل (حسين باشا)، وذلك بالاتصال بوالي الأحساء مقابل المال الذي دفعه له^(٦٩). وأخيراً، استغل (حسين باشا) انشغال السلطان بالحرب مع إمبراطور النمسا^(٧٠)، واعتقد بأن الحرب ستستمر طويلاً، فقام بإرسال جيش كبير، وأعطى (تيفينو) أرقاماً عن عدد ذلك الجيش - كما تأكد له - بما لا يزيد على خمسة أو ستة آلاف مع بعض المدفعية، إلا أنه استدرك على هذا العدد بأن الأخبار التي انتشرت في المدينة من أن العدد كان سبعة أو ثمانية أضعاف العدد الذي حدده، وهذا شيء مبالغ فيه. نزل ذلك الجيش في ميناء القطيف، وزحف منه إلى الأحساء، التي لا تبعد عنه سوى ثلاثة أيام، وسرعان ما سيطر عليها دون أية مقاومة، وهذا الكلام غير صحيح، أمّا والي الأحساء، فقد فرّ إلى القسطنطينية (استانبول) مع اقتراب الجيش، وعرض شكواه إلى السلطان^(٧١)، الذي أصدر أمره فوراً إلى والي بغداد وحلب وأورفا وديار بكر والموصل وولاية آخريين، وأصبح عددهم ثمانية، بالتوجه إلى الأحساء وإعادة إليها السابق (محمد بن علي باشا) إلى ولايته، وطرده والي البصرة منها، وحرمانه من كل شيء. إلا إن (حسين باشا) والي البصرة لم تُرهبه كل تلك القوّات، وبدا مستعداً للدفاع عن الأحساء، وفي هذا المجال

وتحسباً لهذا الموقف، قام بتحسينها، وإرسال عدد كبير من المدافع، وفي الوقت نفسه، استخدم الأسلوب الدبلوماسي، وأرسل إلى السلطان يُخبره بالأشغال نفسها هذا الغزو، وأنه على استعداد لدفع ضرائب جديدة مساوية للضرائب التي كان يدفعها سابقاً. واستنتج (تيفينو) أنه من المؤكد أن السلطان العثماني إذا لم يعقد السلام مع الإمبراطور، فإن (حسين باشا) سيتأدى في أطماعه، ولن يكتفي بأقل من السيطرة على مسقط^(٧٢).

رابعاً: المحور الديني

اهتم (تيفينو) بالجماعات الدينية في البصرة، وعلى الأخص الصابئة المندائيين. أما بالنسبة إلى المسلمين، فلم يتطرق إلى عقائدهم، ولكنه أولى طريق الحج من البصرة إلى مكة اهتماماً خاصاً، وأعطانا معلومات عن الأماكن التي ينزل فيها الحجاج، ووصف الطريق بالاعتيادي الذي يسلكه الحجاج للذهاب من البصرة إلى مكة المكرمة، وتكون بداية الرحلة من البصرة عن طريق بوابة الشرق، ويقصد بها بوابة الزبير، ويذهبون إلى جامع علي^(٧٣) الذي يبعد ثلاثة أراغش^(٧٤) عن البصرة، وتوجد فيها مياه غير مستساغة للشرب (مجة) في خندق القلعة التي تنتصب في ذلك المكان الذي أسست فيه مدينة -حينذاك-، ويبعد عن البصرة خمسة أراغش من جهة الجنوب، والصحيح من جهة الشرق، فهناك مياه عذبة. ويسير الطريق بعد ذلك من جبل سنام^(٧٥) إلى قناة الحفار، التي لم يحدد موقعها؛ إذ يوجد بئر مياهه صالحة للشرب، على بعد ستة أراغش، وفي هذا المكان يتزودون بالماء لرحلة سبعة أيام مقبلة؛ إذ إنهم لا يجدون ماءً ولا مسكناً خلالها،

وبعد هذه المدّة يجدون بئراً مياهها صالحة للشرب، فيأخذون ما يكفيهم من الماء لمدة ستة أيام مقبلة، حتّى يصلوا في ختامها إلى منطقة (عزّة) التي يوجد فيها بئر ذات مياه عذبة، يأخذون منها ما يكفيهم من الماء لمدة ثلاثة أيام مقبلة، يصلون بعدها إلى نجد، التي توجد فيها قلعتان تُقابل إحداهما الأخرى، ويسكنها العرب، ويقوم الحجاج فيها بشراء المؤن والأطعمة، إلا إن المياه في هذا المكان غير صالحة للشرب، ومع ذلك يضطرّ الحجاج إلى أن يتزوّدوا بها لمدة خمسة أيام مقبلة، حتّى يصلوا إلى مكانٍ فيه ماء صالح للشرب لقطع يومين آخرين، وبعدها يجدون بئراً أخرى ذات مياه غير صالحة للشرب، ولكن عليهم التزوّد بها لمدة أربعة أيام مقبلة، يصلون بعدها إلى بئرٍ يسمّى (حرم بكر لر)، وفي هذا المكان يقوم جميع الحجاج بنخلع ملابسهم، ولا يتركون شيئاً يغطّي أجسامهم، باستثناء قطعة قماش لستر العورة^(٧٦)، وأخيراً يتزوّد الحجاج بالماء لمدة سبعة أيام مقبلة، ويواصلون مسيرهم للوصول إلى جبل عرفات^(٧٧)، وقد كانت المسافة بين البصرة وجبل عرفات - حسب تقدير تيفينو هي أربعة وثلاثون يوماً.

وفي جبل عرفات يقومون برمي الجمرات على الشيطان^(٧٨)، وفي صباح اليوم التالي يرتدون ملابسهم بعد أن يضحّوا. وهناك آبار على جبل عرفات يأخذون منها ما يكفي من المياه للوصول إلى مكّة المكرّمة التي لا تبعد سوى رحلة يوم ونصف اليوم. ومن مكّة المكرّمة يذهبون إلى وادي فاطمة المكان الذي يوجد فيه ضريح فاطمة الذي يبعد اثني عشر يوماً يجدون خلالها آباراً، ولكنّ المنطقة خالية من السكّان. ومن وادي فاطمة يذهبون إلى المدينة المنورة التي تبعد خمسة أيّام، ويعودون من المدينة إلى شعب حفار القريب من البصرة في غضون خمسة

وثلاثين يوماً، ليصلوا إلى البصرة^(٧٩).

وعند كلامه عن طوائف البصرة، يذكر (تيفينو) أن البصرة فيها العرب وهم الأغلبية، وتوجد طائفة الصابئة، فضلاً عن وجود الفرس والهنود الذين يعيشون في مركز الولاية، وهؤلاء الأخيرين معابد فيها^(٨٠)، ولا يعيش أيّ إفرنجيّ (مسيحيّ) في البصرة سوى الآباء الكرمليين المبجلين، الذين يوجد لهم دير في مركز المدينة، يعلوه شعار الصليب، وتوجد لهم كنيسة في الدير، لا تقتصر خدماتها على الفرنجة فحسب، وإنما تشمل -أيضاً- الأرمن والنساطرة، الذين يرتادون المدينة خلال الموسم التجاري للتمور، فهم يذهبون إلى الدير لأداء الصلاة، ولكنهم لا يرتلون القداس فيها، ويحصل والي البصرة على بعض الهدايا من الرهبان هدية من الدير. أما الفرنجة الآخرون، مثل: البرتغاليين والإنكليز والهولنديين، فلا يأتون إلى البصرة إلا في الموسم، ويغادرونها عند انتهائه^(٨١).

والجدير بالملاحظة أن (تيفينو) اهتم بطائفة الصابئة، وخالف الرخالة السابقين الذين عدّوا الصابئة من المسيحيين^(٨٢)، وأطلقوا عليهم (مسيحيو القديس يوحنا)، وذكر أن هذا خطأ فادح -على حدّ قوله-، بل تطرّف في القول بأنهم أقرب إلى الكفار منهم إلى المسيحيين، وبين أن أحدهم أكّد له أنه اعتنق المسيحية على المذهب الكاثوليكي، وذهب إلى روما قبل بضع سنوات، وأن عقيدتهم مزيج من المسيحية والإسلام واليهودية والكفار، وأن تسميتهم بالمسيحيين جاءت بسبب التعميد الذي يقومون به إحياءً لذكرى تعميد القديس يوحنا للسيد المسيح المخلص، ويقارن هذا الأمر مع العثمانيين، حينما يتحدثون عن الدين اليهودي في مسألة الختان، ويرى أن التعميد عندهم بالاسم فقط؛

لأنَّهم لا يعمِّدون باسم الثالوث الأقدس، ويقومون به في أيَّام الأحاد، وإذا وُلد لهم طفل في أيِّ يومٍ آخر، فسيتنظرون إلى يوم الأحد لتعميده حتَّى لو كان مهَّدداً بالموت، ويقوم رجل بحمله إلى ضفَّة النَّهر؛ لأنَّهم يعتقدون أنَّ التعميد لا يتمُّ إلَّا بالماء الجاري، وعلى هذا الأساس تراهم يسكنون دوماً قرب الأنهار، ولا يسكنون الأراضي الخالية من الأنهار، ويذهب معه أحد الكهنة، وعند وصولهم يتلو الكاهن هذا الدُّعاء: «باسم الحيِّ العظيم، البركة لجميع المؤمنين، ولجميع المندائيِّين المصبوغين في الماء الحيِّ، الذين للحيِّ يشهدون، والأعمال الصَّالحة يعملون، وبمندهايَّتي يعترفون، وللثلاثة أبناء جيل الحيِّ المتألِّق يمشعون»، ثمَّ يقوم برشُّ قليلٍ من الماء على رأس الطِّفل، ويردِّد الدُّعاء نفسه مرَّة ثانية، ويرشُّ الماء، وكذلك يفعل ذلك في المرَّة الثالثة، وبعد أن يتمَّ كلُّ ذلك يحمل الطفل ويُغطَّسه ثلاث مرَّات في النَّهر، وهذا كلُّ ما يخصُّ طقس التعميد. والمهمُّ ذكره أنَّهم لا يكتفون بالتعميد مرَّة واحدة في حياتهم، بل يكرِّرون هذه الطقوس كلَّ سنة، وفي غضون خمسة أيَّام، على كلِّ الأشخاص، الكبير منهم والصَّغير، السَّاب والكله، الذَّكر والأُنثى^(٨٣).

يحاول (تيفينو) من كلامه عن طقوس الصَّابئة، أن يسمِّيها (الأسرار الأربعة المقدَّسة)، وهي ليست كذلك، وهي: التعميد، والقربان، والرهبنة، والزواج. وهم لا يعترفون بالتوثيق، ولا بمسحة الزَّيت المقدَّس، ولا بالتوبة. وفيما يخصُّ سرَّ القربان، فهو قربان بالاسم لا أكثر، وأمَّا التعميد، فلا يزيد عمَّا ذكره سابقاً. وفي القربان لا يردِّدون عبارات التكريس على خبز القربان المقدَّس، وإنَّما بعض الأدعية فقط، وهم يصنعون خبز القربان المقدَّس بنقع الطحين بالخمير

والزيت، وفيما يخص تخمير النذور، فهم يستخدمون الخمر المستخرج من العنب المجفف (الزيب) المنقوع بالماء، ثم يعصرونه، ويستخدمون الخمر ذاته لإبلال الطحين الذي يصنعون منه القربان^(٨٤).

وفيما يخص الرهبنة عند الصابئة، فعندهم مجموعة دنيا ومجموعة عليا من الكهنة، ولكن لا يُقيمون طقوساً كبيرة لترسيمهم؛ لأن الأبناء يتبعون الآباء في الكهانة، شريطة أن يبلغوا السادسة أو السابعة من العمر، وفي حال فشل أو عدم قدرتهم على ممارسة العمل، يأتي بأقرب الأقرباء. وأهم شيء لديهم هو ما يخص طقس النذور، الذي يتلو عليه الكاهن بعض الأدعية حتى يصبح كاهناً، وهذا يكفي^(٨٥).

والزواج عندهم من الطقوس المهمة لمباركته، ويتم بأخذ الكاهن قسم العروس بأثنا عذراء، بحضور امرأة تُستدعى لذلك، فتجعلها تقسم بما تشاء، ولا بد لزوجة الكاهن من أن تتقضى عنها، وتقدم شهادة عما تقوم به، ثم يقوم الكاهن بتعميد العريس والعروسة، ثم يجعل كلاً منهما يُدير ظهره للآخر، مردداً بعض الأدعية عليهما، وبذلك يتم عقد الزواج. ويحق لكل رجل من الصابئة أن يتزوج امرأتين، سواء أكان من الناس العاديين أو من الكهنة، ويُشترط أن تكون نساء الكهنة عندما يتزوجن عذارى^(٨٦).

وبعد هذا الكلام عن الطقوس الأربعة للصابئة، التي يسميها الأسرار الأربعة، يعود إلى الكلام عن علاقتهم بالمسيحية، فيُصرّ على أنهم لا يعرفون ما هو الإنجيل، وقداسهم كله عبارة عن صلوات، ويتناولون خبز القربان المقدس كما يصنعونه بطريقتهم، وفي تناول الخمر المصنوع من العنب المجفف، وهم لا

يتلون القدّاس في البصرة؛ لعدم وجود كنيسة لهم فيها^(٨٧). والصّابئة لا يعملون في أيّام الآحاد، ولديهم ثلاثة أعياد في السنّة، الأول في مطلع السنّة الجديدة، ويستمرُّ ثلاثة أيّام، وهو بمناسبة خلق آدم عليه السلام، والثاني في بداية الشّهر الرابع، ويستمرُّ ثلاثة أيّام -أيضاً- وهو عيد القدّيس يوحنا، أمّا العيد الثالث، فيكون في بداية الشّهر السابع، ويستمرُّ خمسة أيّام، وهو بمناسبة تعميد القدّيس يوحنا للمخلص السيّد المسيح. وجميع الصّابئة يتعمّدون خلال تلك الأيّام الخمسة مرّة واحدة في كلّ يوم، وهم يسمّون العيد الأخير (عيد بنجيا) (عيد البنجة)^(٨٨).

والصّابئة لا يؤمنون إلاّ بالقدّيس يوحنا ووالده القدّيس زكريّا وأمّه (اليسابات)، ولا يعرفون عن المسيح عيسى عليه السلام سوى أنّه خادم للقدّيس يوحنا، أمّا ما يخصّ العالم الآخر (يوم القيامة)، فهم لا يعترفون بالأعراف، وإنّما بالجنّة والنار فقط، وهم يقولون: إنّ الأشرار في ذلك اليوم سيمثرون فوق صراط ضيق تحرسه الأسود والثعابين وبعض الحيوانات المفترسة الأخرى التي ستلتهمهم، بينما يمرُّ الأختيار على الصّراط نفسه، لكنّهم سيتجاوزون تلك الحيوانات، ويسيرون نحو الجنّة مباشرة، وإنّهم يتصوّرونها مثل المسلمين مادّية، وإنّهم أخذوا منهم الكثير من الخرافات - ولم يبيّن ماهي تلك الخرافات في نظره- التي تشكّل جزءاً كبيراً من معتقداتهم^(٨٩).

ويوضّح (تيفينو) بعض العادات والتقاليد والممارسات الاجتماعيّة عند الصّابئة، ومنها الأطعمة التي يتناولونها، مثل اللّحوم، ويذكر أنّهم لا يأكلون أيّ لحم، إلاّ لحم الحيوان الذي يذبحه الصّابئيّ، وإذا مسّه أيّ شخصٍ من غير دينهم، فسيعدّونه نجساً لا يجب تناوله، ويقوم كهنتهم بذبح الدّجاج والخراف

والسّمك (السّمك لا يُذبح!)، وعند عمليّة الذبح يقوم رجل من كهنتهم بخلع ملبسه عند القيام بذلك، ويرتدي زوجاً من السراويل الداخليّة البيضاء، ويمرّر بها حزام من الحبال، ويلفّ جسده بقميص داخليّ أبيض فيه حبل أيضاً، ويرتدي عمامة بيضاء، يتدلّى طرفها على كتفه الأيسر، ووضع منشفة بيضاء حول رقبته على شكل إزار، وغيرها من الأسهل - هذا كلام فيه استخفاف بالناس - التي تصنع منها عصابة مشابهة لتلك التي تستخدم في ربط الذراع إذا أصيب بجراح، ويبلغ عدد هذه الأقمشة جميعاً سبع قطع. وبعد أن يرتديها يقوم بغسل قدمي الدّجاجة التي يُراد ذبحها ومنقارها؛ لأنّهم يقولون: إنها تأكل القاذورات وتمشي عليها، وعند الذبح يقرأون بلغتهم (بسم الحيّ العظيم، إنّ هذه لفائدة من يأكلونها)، ويفعلون الشيء نفسه مع الخراف، إلّا إنّهم لا يغسلونها؛ لأنّها تأكل العُشب فقط، وليس القاذورات، كما يقولون، وينطبق الشيء ذاته على الأسماك. ويجوز لأبناء الكهنة الذين تبلغ أعمارهم السادسة عشر والسابعة عشر، الذين مارس آباؤهم عمليّة الذبح أن يقوموا بذلك، وبخلافه لا يُسمح لهم به، وقد شاهد (تيفينو) هذه الطقوس، التي وصفها بالسّارة^(٩٠).

يذكر (تيفينو) أنّ الصّابئة يعتقدون أنّ كلّ إنسان ليس من دينهم فهو مدنّس؛ ولذا فهم يحرصون على عدم الشرب من الإناء الذي يشرب منه غير الصّابئيّ، ولو شاهدوا هذه الحالة فسيقومون بكسر ذلك الإناء حتّى لا يتلوّث أحدهم لو شرب به. ولهم كراهية للون الأزرق، وهذه خرافة غريبة - على حدّ قوله -، ويقارنهم باليهود الذين يمقتون لحم الخنزير لسبب تافه؛ ويبرّر اليهود ذلك بأنّهم حينما علموا من خلال كتبهم بأنّ التعميد سيهدم شريعتهم، لجأوا إلى الحيلة،

فقاموا بإلقاء كمّية كبيرة من صبغة النيلة في نهر الأردن لإفساد الماء حينما علموا أنّ القديس (يوحنا) بصدد تعميد السيّد المسيح ﷺ، ولكنّ الربّ أرسل ملاكاً يحملُ إناء مليئاً بالماء النقيّ النظيف من مكانٍ آخر في نهر الأردن، قام القديس (يوحنا) بتعميد السيّد المسيح منه. وهذا رأي عامّة الصّابئة. ويورد (تيفينو) سبباً آخر لكرهيتهم اللون الأزرق - أخبره به أحدهم - وهو أنّ غائط الكلب يُستخدم في صنع تلك الصبغة، وأنّهم يعدّون الكلب حيواناً نجساً^(٩١)، والسبب الثاني يُعدُّ غير معقولٍ لقول أحدهم به، بينما غالبيّة الصّابئة تؤمن به.

امتحن معظم الصّابئة عمل صياغة الذهب، إلّا أنّ الكثير منهم فقراء جدّاً، ويعيش عدد كبير منهم في البصرة حول نهر العشار، ويعيش البعض في قرى الجزائر (يقصد شمال البصرة)، ولكنّ القسم الأكبر يعيشون في مناطق شرق نهر شطّ العرب في (هرويز^(٩٢) وشوشتر)، وهما مدينتان خاضعتان لشاه إيران في إقليم خوزستان، وتبعد الأولى أربعة أيّام عن البصرة، ويرويه نهر الكرخة الذي يصبُّ في نهر دجلة فوق المكان الذي يلتقي عنده بنهر الفرات بقليل. أمّا مدينة شوشتر، فهي المدينة الرئيّسة في خوزستان، وتبعد ثمانية أيّام عن البصرة، ويرويه نهر الكارون. ويصف (تيفينو) الصّابئة بأنّهم جهلة بشكل كبير، وحكماء هم لم يدرسوا دينهم بشكل جيّد، وليس لديهم سوى كتابين تمّ تدوينهما قبل مدّة ليست طويلة، ومع أنّهم يقولون إنّ تاريخهما يعود إلى عصر آدم ﷺ، لكنّ الحقيقة أنّ المسلمين وورثتهم أحرقوا كتبهم القديمة ومعابدهم^(٩٣)، والدليل على غباء هؤلاء النّاس عدم معرفتهم لعدد الأشهر في تقويمهم السنويّ عندما سألهم (تيفينو) عنه، وطلبوا منه أن يسأل شيخهم عن ذلك، وعن أمورٍ أخرى

تخصّ ديانتهم. وفي حضوره كيفية ذبح الدجاجة، وجّه لشيخوهم أسئلة عدّة، منها عن تقويمهم، وعرف أنّ سنتهم تتكوّن من (٣٦٦) يوماً، ومن اثني عشر شهراً، وكلّ شهر يتكوّن من ثلاثين يوماً، إلى جانب ستّة أيّام إضافية، وعلم أنّهم يعدّون ذلك اليوم -أي: الثاني من تشرين الثاني- هو العشرين من شهرهم الأوّل؛ لذا، فإنّ سنتهم تبدأ في الثالث عشر من تشرين الأوّل. ويُذكر أنّه بذل وسعه ليعرف أعمارهم، ولكنّه لم يُفلح في ذلك. وعلم -أيضاً- أنّ عيدهم الأوّل يبدأ في هذه السنّة (١٦٦٥)، والعيد الثاني يبدأ بعد ثلاثة أشهر، والعيد الثالث يبدأ -أيضاً- بعد ثلاث أشهر^(٩٤).

المغادرة

غادر (تيفينو) البصرة في يوم السّبت السّابع من شهر تشرين الأوّل، واستمرّت السفينة أربعة أيّام حتّى وصولها إلى بداية مصبّ نهر شطّ العرب والدخول في الخليج العربي^(٩٥).

الخاتمة

تُعَدُّ الرِّحلات الأجنبيَّة مصدرًا للمعرفة التاريخيَّة، يحتاجها المؤرِّخ لإكمال بعض الأمور التي لم يستطع الحصول عليها من المصادر التي بحوزته. ورحلة (تيفينو) تندرج في هذه النَّاحية، فقد أظهرت الرِّحلة معلومات لم يذكرها الرِّحَّالة الذين سبقوه. ويمكن توضيح أهمِّ نتائج الرِّحلة بما يلي:

١- حدَّد (تيفينو) المواقع الجغرافيَّة في المدينة من حين دخوله إلى شطِّ العرب من جهة الخليج، وبيَّن الأماكن التي زارها، وأنجَّهاها وتسمياتها -آنذاك-، ونوعية المناخ السائد في البصرة، وتأثيره السيِّء على السُّكَّان في فصل الصَّيف، وذلك بانتشار الأمراض فيها، وربِّها بالغ في هذا الشَّأن.

٢- أوضح أهمِّيَّة البصرة في المجال الاقتصاديِّ، وركَّز على أهمِّيَّتها التجاريَّة؛ وذلك لوجود شطِّ العرب، الذي عدَّه ميناء مهمَّ جدًّا؛ لأنَّه قادر على استقبال كلِّ السُّفن العالميَّة، وبمختلف أحجامها، وبفضله يُمكن أن تُصبح البصرة -على رأيه- أغنى مدينة في العالم. وذكر الزِّراعة، ومنها زراعة النخيل وأهمِّيَّتها التجاريَّة للمدينة، فضلاً عن زراعة الفاكهة والخضروات المتنوعة. واقترح أمور عدَّة لجعل البصرة من أغنى مُدن العالم وأجملها، وذلك بالاعتناء ببنائها، وإنشاء الحدائق على ضفَّة نهر العُشَّار الشماليَّة، والاهتمام بالأرض الزراعيَّة. وتحدَّث عن صناعة السُّفن في المدينة.

٣- كان (تيفينو) شاهد عيان للأحداث السياسية الصاخبة في عهد الوالي (حسين باشا أفراسياب)، وصراعه مع العثمانيين، والغريب أنه لم يذكره بالاسم، بل سمّاه والي البصرة، ولم يكن مصيباً في ذكر تولية آل أفراسياب للحكم، ويبدو أن معلوماته لم تكن من مصادر موثوقة.

عند كلام (تيفينو) عن الطوائف الدينية في البصرة، تكلم عن طريق الحجّ البصريّ ومنازله، إلا أنه لم يكن دقيقاً في ذكرها، ولا حتى ذكر الشعائر الدينية للحجّ، وقد أفرد صفحات عدّة للكلام عن طائفة الصابئة، وكان متحاملاً عليهم، بل قاسياً أحياناً في وصف طقوسهم، والأصعب وصفه لهم بالكفر والغباء المفرط، ووصفهم بالابتعاد عن كلّ الناس؛ لأنهم يعدّونهم أنجاساً، ومع ذلك تُعدّ الرحلة ممتعة في الوصف والمعلومات عن مدينة البصرة.

الهوامش

- ١- للمزيد من التفاصيل عن حياة الرَّحالة (تيفينو)، يُنظر: رحلات جان دي تيفينو في الأناضول والعراق والخليج العربي، (١٦٦٤-١٦٦٥)، ترجمة وتعليق: أنيس عبد الخالق محمود، بيروت، ٢٠١٣، مقدّمة المترجم، ص ٧-١٢، وسُسُشير إليها في الصّفحات اللاحقة اختصاراً برحلة (تيفينو).
- ٢- يُنظر: رحلة تيفينو: ص ١٢٥، ١٢٧، ١٢٨.
- ٣- يُنظر: المصدر نفسه: ص ١٣٠، ١٢٩.
- ٤- يُنظر: المصدر نفسه: ص ١٣١، والعباسي: نقد فارسيّ متداول في البصرة، نسبة إلى الشّاه عبّاس، وهي نوعين: ذهبيّ، يُدعى الأشرفيّ، وفضيّة، والأخيرة تساوي في وزنها ثلاثة أرباع المثقال الصّيرفيّ، والعباسيّة الفضيّة تساوي (٤٠) أقيّة. عبّاس العزاوي، تاريخ النقود العراقيّة لما بعد العهود العبّاسيّة: ص ١٧٣.
- ٥- يُعدُّ نهر السّين نهر رئيس في شمال فرنسا، يبلغ طوله (٧٧٧) كيلو متر، وهو أحد طرق النقل المائيّة التجاريّة، ومصدر جذب سياحيّ في مدينة باريس، ويوجد عليه ثلاثون جسراً <https://marafa.org>.
- ٦- تسمية تُطلقها المصادر التاريخيّة على منطقة العشار والمّاوي في القرنين السّابع عشر والثامن عشر. وقد وقع (تيفينو) في خطأ جغرافيّ عندما حدّد موقعها في جنوب منطقة أبي الخصيب، والصّحيح أنّها تقع شمال تلك المنطقة.
- ٧- يُنظر: رحلة تيفينو: ص ١٣٥.
- ٨- يُنظر: المصدر نفسه: ص ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧.
- ٩- يُنظر: المصدر نفسه: ص ١٣٧.
- ١٠- يُنظر: المصدر نفسه.
- ١١- المنكسار: مكان ينحني فيه النهر بشكل قليل، وقد وردت التسمية في كتاب (زاد

المسافر) باسم (المكسار)، وفي المخطوطة باسم (المنكسار)، أو المنكسر، والتسمية الثانية هي الصّحيحة، وتعني مكان التواء النّهر، ويُمكن تحديده في الوقت الحاضر بضمّة نهر العشار الجنوبيّة مقابل بلدية البصرة القديمة، يُنظر: الكعبي، المخطوطة، ورقة (٤١).

١٢- يُنظر: رحلة تيفينو: ص ١٣٨.

١٣- الفرسخ: بقياس الفرنسيين يساوي ثلاثة أميال أو خمسة كيلو مترات، يُنظر: تافرنيه، العراق في القرن السابع عشر: ص ١٦، الهامش.

١٤- يُنظر: رحلة تيفينو: ص ١٤١، ومدّة السّفَر من البصرة إلى بغداد فيها مبالغة كبيرة.

١٥- يُنظر: هذا الكلام غير صحيح؛ لأنّ المدينة داخل الأسوار لا تتجاوز عشرة كيلو مترات طويلاً، وأقلّ منها عرضاً، والقسم الأكبر مزروع بالنخيل وبعض الفاكهة، والقسم الآخر تمّ تخصيصه لبناء المراكز الإداريّة والمحلات السّكنيّة.

١٦- ما زالت البصرة - إلى الآن - تشكو من الإهمال والتأخّر حتّى الوقت الحاضر، ولم يتمّ الالتفات إلى تلك الأصوات المطالبة بتطوير البصرة.

١٧- يُنظر: رحلة تيفينو: ص ١٤١، ١٤٢.

١٨- لم نسمع من الرّحالة الذين زاروا البصرة في المدّة نفسها، ومنهم الرّحالة تافرنيه، عن وفيات فيها في ذلك الوقت.

١٩- يُنظر: رحلة تيفينو: ص ١٤٦.

٢٠- يُنظر: المصدر نفسه: ص ١٤٧.

٢١- ليس صحيحاً أنّ حدوث هذه الحالة عند بعض النّاس راجع إلى طبيعة الهواء، وإنّما إلى قلة المناعة، وبداية لحدوث جلطة في الوجه، تسمّى شعبياً بـ(الشرجيّة).

٢٢- يُنظر: رحلة تيفينو: ص ١٤٧.

٢٣- يُنظر: المصدر نفسه: ص ١٣١.

٢٤- يُنظر: المصدر نفسه: ص ١٣٥.

٢٥- هذا الكلام غير صحيح؛ إذ إنّ الأرض الصّالحة للزراعة والمياه العذبة تُساعد كثيراً على زراعة النّخيل.

٢٦- يُنظر: المصدر نفسه: ص ١٤٢.

٢٧- من المعلوم أنّ العنب في البصرة ينضج في شهر حزيران وبداية تمّوز.

- ٢٨- هذه المزروعات تنمو في أشهر الربيع والصيف في البصرة.
- ٢٩- يُنظر: المصدر نفسه.
- ٣٠- مجلفطة: أداة من حديد (موسّع ثقوب) يستعملها عامل الجلفطة لإدخال فتيل القنب المقير في حزوز السفينة، وفي الشقوق بين ألواحها، يُنظر: قاموس الكوكل.
- ٣١- رحلة تيفينو: ص ١٣١، ١٣٢.
- ٣٢- المصدر نفسه: ص ١٣٣.
- ٣٣- الآباء الكراملية: أو ما يسمون بفرقة الكرمليين الحفاة الذين جاءوا من مدينة (أسيكان) الفارسية، التي كان لهم فيها إرسالية تبشيرية، وكان مقرّ كنيستهم في محلة السيمر باسم (كنيسة مريم العذراء)، التي تم افتتاحها في سنة (١٦٢٤)، ويبدو أن ظهورهم في البصرة كان بفعل النشاط التبشيري لهذه الفرقة في مناطق عدّة في الشرق، للمزيد من التفاصيل، يُنظر: تافرنيه، العراق في القرن السابع عشر، ترجمة: بشير فرنسيس وكوركيس عواد: ص ١٠٠، ألكسندر أداموف، ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها: ص ١٩٩، chronicle of the events between the year 1326 and 1733 relating to the settlement of the order of Carmelites in mesopotamia ، herman gllonez (trans.) .oxford، 1921، pp.329-330.
- ٣٤- يُنظر: رحلة تيفينو: ص ١٤٦.
- ٣٥- البيرة: مركز قائممقامية لواء الرقة في ولاية حلب، على نهر الفرات، وتسمى بيرة الفرات، يُنظر: المعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمانية، س. موستراس، ترجمة: عصام محمد الشحادات: ص ١٨٨.
- ٣٦- الرضوانية: أحد مناطق غرب بغداد، كانت في الماضي منطقة زراعية وتجارية، .OR.WIKIPEDIA.ORG/WIKI
- ٣٧- يُنظر: رحلة تيفينو: ص ١٤٤.
- ٣٨- جبرون: أصبحت تسمى (بندر عباس) منذ سنة (١٦٢٢).
- ٣٩- كنج: ميناء يقع على الساحل الفارسي: .BOOKS//BOOKS.GOOGLE.IQ
- ٤٠- احتلّ البرتغاليون هرمز سنة (١٥٠٧)، وبعد قيام الفرس بالتحالف مع البريطانيين، تمّ طردهم منها سنة (١٦٢٢) .OR.WIKIPEDIA.ORG/WIKI

- ٤١- من غير المعقول أن تبقى السفن راسية في الميناء لمدة سبعة أشهر بدون عمل.
- ٤٢- يُنظر: رحلة تيفينو: ص ١٤٥.
- ٤٣- في كلامه الأخير يؤكد أن السفن الأجنبية تُغادر المدينة في نهاية شهر كانون الأول، أي قبل فصل الشتاء.
- ٤٤- يُنظر: رحلة تيفينو: ص ١٤٥، ١٤٦.
- ٤٥- يُنظر: المصدر نفسه: ص ١٦٤.
- ٤٦- عباس الصفوي (١٥٧١-١٦٢٩)، ويسميه الفرس عباس الكبير، عين حاكماً على خراسان سنة (١٥٨١)، بعد هزيمة الأوزبك في معركة حاسمة، واستعادة مدينة مشهد منهم، وإبعادهم عن بلاده. خاض معارك عدّة ضدّ العثمانيين. قام بنقل العاصمة من قزوین إلى أصفهان، سنة (١٥٩٢)، توفي سنة (١٦٢٩) or.Wikipedia.org/wiki.
- ٤٧- ميناء في إحدى مدن تعز اليمنية على ساحل البحر الأحمر، اشتهر بكونه السوق الرئيسة لتصدير القهوة في القرنين السادس عشر والسابع عشر إلى بلدان الخليج والمناطق المجاورة Wikipedia.org.
- ٤٨- ميناء مشهور في الهند، ترد منه الأقمشة بأنواعها، وكذلك السلع الأخرى، كالقهوة والسكر والتوابل والخيزران، وغيرها من السلع، إلى موانئ الخليج العربي والمناطق المجاورة books.google.iq.
- ٤٩- يُنظر: رحلة تيفينو: ص ١٣٩.
- ٥٠- القرش: عملة فضية عثمانية، وتساوي (٤٠) بارة، أو ثمانية شاهيات، تغيرت قيمتها خلال القرن السابع عشر والثامن عشر، للتفاصيل، يُنظر: هدية جوان عيدان الخالدي، المسكوكات العثمانية المضروبة في العراق والقسطنطينية (١٥٣٤-١٩١٤): ص ٩٨-١٠٣.
- ٥١- رئيس أو كبير ملاحى الميناء في البصرة، ويقوم بالسيطرة على أوضاع الملاحة، وحلّ النزاع بين أصحاب السفن في داخل الميناء.
- ٥٢- نقود ذهبية، سميت بذلك نسبة إلى مختصر كلمة بادشاهي (سلطان الدولة العثمانية)، وكانت تساوي خمسة بارات. يُنظر: هدية جوان الخالدي: ص ٧١.
- ٥٣- جيكين: عملة ذهبية تعادل (١٢٠) أقيجة، وهذا الاسم كان يُطلق على الدنانير في البندقية، وأول من استعمل هذا اللفظ الإيطاليين، يُنظر: هدية جوان الخالدي: ص ٧٠.

- ٥٤- يُنظر: رحلة تيفينو: ص ١٦١.
- ٥٥- يُنظر: المصدر نفسه: ص ١٦٢.
- ٥٦- يُنظر: المصدر نفسه: ص ١٢٣.
- ٥٧- يُنظر: المصدر نفسه: ص ١٣١.
- ٥٨- يُنظر: المصدر نفسه: ص ١٣٨.
- ٥٩- يُنظر: المصدر نفسه: ص ١٤٩.
- ٦٠- للمزيد من التفاصيل، يُنظر: عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين: ٤٦/٥-٩٥.
- ٦١- عمّا حسين باشا هما: أحمد آغا، وفتحي بك، يُنظر: فتح الله بن علوان الكعبي، زاد المسافر ولهنة المقيم والحاضر: ص ١٨-١٩.
- ٦٢- لم يكونا مطيعين للسلطان إلاّ اسمياً، وإمارة البصرة تكاد تكون مستقلة ذاتياً.
- ٦٣- لم يعلم تيفينو أنّ مرتضى باشا هو أحد الولاة الذين يتمّ تعيينهم وعزلهم من قبل صنّاع القرار في إستانبول.
- ٦٤- يُنظر: رحلة تيفينو: ص ١٥٠.
- ٦٥- يُنظر: المصدر نفسه: ص ١٥١.
- ٦٦- عند دخول مرتضى باشا البصرة فاتحاً، انهزم حسين باشا إلى بهبهان في بلاد فارس، وأخذ معه خدمه وحرسه، ولبث هناك، وبعد القضاء على مرتضى باشا، راسل أهالي البصرة حسين باشا وهو مقيم في بهبهان، واعتذروا له، فرجع إلى البصرة، وقام بحكمها سنة (١٦٥٣)، وأظهر ولاءه للسلطان، وقدم الهدايا له، يُنظر: علوان بن فتح الله الكعبي، مخطوطة زاد المسافر، المكتبة العباسية في البصرة (مكتبة بيت باش أعيان) رقم ١١٠ أ، ورقة ٨؛ الكعبي، المصدر السابق: ص ٢٠.
- ٦٧- يُنظر: رحلة تيفينو: ص ١٥١.
- ٦٨- هو الوالي محمد بن عليّ باشا.
- ٦٩- بعد أن قام حسين باشا بالاستيلاء على القطيف، نصب نائباً عنه فيها، وبعد ذلك تعاون مع رئيس قبيلة بني خالد الأمير براك لاحتلال الأحساء سنة (١٦٦٣)، ونجح الأمير في ذلك، إلاّ إنه طمع فيها، وأرادها لنفسه، ولم يرجعها إلى الوالي السابق كما يقول تيفينو؛ لأنّه

هرب إلى إستانبول ليقدم إلى السلطان شكاية ضد حسين باشا. أما حسين باشا، فقد شعر بأن الأمير براك قد خدعه؛ لذا، قام بإرسال حملة برية وبحرية سريعة، واحتل فيها معظم مناطق الأحساء. وارتكبت قواته فيها فظائع كثيرة، وتم قتل الكثير من الناس، كما يذكر صاحب كتاب زاد المسافر، وبعدها سيطر عليها، يُنظر: فتح الله بن علوان الكعبي، زاد المسافر ولهنة المقيم والحاضر: ص ٤١، ياسين بن حمزة بن أحمد الشهابي، أرجوزة في تاريخ البصرة، دراسة وتحقيق: فاخر جبر مطر: ٣٥، ٣٧، ٣٨، ستيفن همسلي لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمة: جعفر الخياط: ص ١٤٢.

٧٠- فردريك الثاني الذي كان يخوض حرباً ضد الدولة العثمانية، وانتهت بهزيمة العثمانيين في معركة القديس جوثارد في آب سنة (١٦٦٤)، بمقاطعة فلس غرب المجر maria-online.com.

٧١- إن فرار والي الأحساء قد تم قبل دخول الأمير براك إليها.

٧٢- يُنظر: رحلة تيفينو: ص ١٥٥، ولم يتطرق تيفينو إلى أن الحملة العثمانية توجهت إلى موطن حسين باشا في البصرة بقيادة والي بغداد إبراهيم الطويل، للتفاصيل، يُنظر: لونكريك: ص ١٤٣-١٤٧.

٧٣- جامع الإمام علي عليه السلام. كان الجامع طول القرن السابع عشر تُقام فيه الصلاة، وعندما زاره الرحالة ابن بطوطة ذكر أن الصلاة تُقام في يوم الجمعة فقط، وبعده يتم إقفاله، وسمّاه بمسجد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، يُنظر: محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي، تحفة النظائر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق: علي المنتصر الكتاني: ٢/٢٠٧.

٧٤- وحدة طول ألمانية تساوي ثلاثة أميال أو خمسة كيلومترات. رحلة تيفينو: هامش ٢، ص ١٦٢.

٧٥- يقع الجبل في الجنوب الغربي من محافظة البصرة، وغرب ناحية (سفوان) المحاذية للحدود الكويتية، يبعد عن مركز مدينة البصرة حدود (٤٥) كيلو متر، وحدود (٨، ٥) كيلو متر عن سفوان. أطلق عليه السُّكَّان هذه التسمية؛ لأن شكله يشبه إلى حد ما سنام الجمل www.mk.iq.

٧٦- يبدو أن تيفينو لم يشاهد كيف يرتدي الحجاج ملابس الإحرام التي تتكوّن من قطعتين تغطيان الجسم كاملاً، وإنما سمع ذلك، ولم يفهمه.

٧٧- يُنظر: رحلة تيفينو: ص ١٦٢-١٦٣. كان طريق الحجّ البصريّ -آنذاك- يبدأ عندما تتحرّك القافلة من البصرة إلى الدَّريهميّة، وبعدها إلى صفوان، ثمَّ إلى منزل جهر لتخطّ رحالها وتزوّد بالمياه والمؤن، ثمَّ تتوجّه إلى حصن النبيّ موسى ﷺ الموجود في (أضافا)، وبعدها تتحرّك القافلة مرّة بالعدد من المواقع والمنازل، حتّى تصل إلى (ذات عرق)، التي تُعدُّ ميقات حجّاج نجد والبصرة؛ إذ يُجرمون فيها، ثمَّ يتجهون إلى بستان بني عامر، حيث بيت الله الحرام www.alukah.net/culture.

٧٨- الوقوف في عرفات ليس لرمي الجمرات، وإنما رمي الجمرات في (منى).

٧٩- يُنظر: رحلة تيفينو: ص ١٦٣، وقد وقع تيفينو في عدّة أخطاء في الكلام عن مراسيم الحجّ.

٨٠- إنّ وجود معابد للهنود، ومساجد الفرس، دليل على وجود التسامح الدينيّ، في البصرة -آنذاك-.

٨١- يُنظر: المصدر نفسه: ص ١٦٤.

٨٢- عدا الرّحالة لوغوز، الذي اكتفى بأنّهم ليسوا مسيحيين أبداً، ولم يوضّح كلامه هذا، يُنظر: رحلة لابيولي لوغوز من الهند إلى الأناضول عبر العراق في سنة (١٦٤٩)، ترجمة: خالد عبد اللطيف حسين: ص ٥٨.

٨٣- يُنظر: المصدر نفسه: ١٦٥، ١٦٦.

٨٤- يُنظر: المصدر نفسه: ص ١٦٦.

٨٥- يُنظر: المصدر نفسه.

٨٦- يُنظر: المصدر نفسه: ص ١٦٧.

٨٧- الصّابئة لا توجد لديهم كنيسة، وإنّما لهم معبد خاصّ بهم.

٨٨- يُنظر: المصدر نفسه.

٨٩- يُنظر: المصدر نفسه: ص ١٦٧-١٦٨.

٩٠- يُنظر: المصدر نفسه.

٩١- يُنظر: المصدر نفسه: ص ١٦٩.

٩٢- لا توجد في تلك المنطقة مدينة بهذا الاسم، وربما هي تصحيف لكلمة (الخويزة).

٩٣- يُنظر: المصدر نفسه: ص ١٦٩-١٧٠. هناك تحنُّ وتحامل لتيفينو على الصّابئة، لم يرد

عند غيره من الرحالة في تلك المدّة. وكذلك التحامل على المسلمين، وبخاصّة في تعاملهم مع الصابئة، ولم يرد في المصادر العربيّة والإسلاميّة ما يؤيّد مزاعمه، بل إنّ وجود هذه الطائفة لقرون عدّة في المنطقة الجنوبيّة وبالبصرة تحديداً، واندماجهم مع المسلمين، لدليل واضح على حسن معاملة النّاس لهم.

٩٤- يُنظر: المصدر نفسه.

٩٥- يُنظر: المصدر نفسه: ص ١٧٣.

المصادر والمراجع

- ١- تافرنبيه، رحلة تافرنبيه، العراق في القرن السابع عشر، ترجمة: بشير فرنسيس وكوركيس عواد، بغداد، ١٩٤٤م.
- ٢- تيفينو، رحلات جان دي تيفينو في الأناضول والعراق والخليج العربي (١٦٦٤-١٦٦٥)، ترجمة وتعليق: أنيس عبد الخالق محمود، بيروت، ٢٠٠٢م.
- ٣- س. س. موستراس، المعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمانية، ترجمة: عصام محمد الشحادات، بيروت، ٢٠٢٢م.
- ٤- ستيفن همسلي لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمة: جعفر الحيايط، ط ٥، بغداد، (د، ت).
- ٥- الطنجي، محمد بن عبد الله اللواتي (المعروف بابن بطوطة)، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق: علي المنتصر الكتاني، بيروت، ١٩٧٥م.
- ٦- عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، بغداد، ١٩٥٨م.
- ٧- تاريخ النقود العراقية لما بعد العهود الإسلامية، بغداد، ١٩٥٨م.
- ٨- فتح الله بن علوان الكعبي، زاد المسافر ولهنة المقيم والحاضر، بغداد، ١٩٥٨م.
- ٩- لابولي لوغوز، رحلة لابولي لوغوز من الهند إلى الأناضول عبر العراق في سنة (١٦٤٩)، ترجمة: خالد عبد اللطيف حسين، بيروت، ٢٠١٥م.
- ١٠- هدية جوان عيدان الخالدي، المسكوكات العثمانية المضروبة في العراق والقسطنطينية (١٥٣٤-١٩١٤)، النجف الأشرف، ٢٠١٣م.
- ١١- ياسين بن حمزة الشهابي، أرجوزة في تاريخ البصرة، دراسة وتحقيق: فاخر جبر مطر، البصرة، ١٩٩٠م.
- ١٢- مواقع الشبكة العنكبوتية.

